صـــلات علمية
بين مصر والشام
في النصف الأول من القرن الثامن الهجري

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

طلع هلال المحرم من القرن الثامن الهجري على العالم العربي بأحداث جسام :- وسلطان المماليك في مصر هو الناصر ابن قلاوون ، ونائب مصر الأمير سيف الدين سلار ؛ ونائب الشام آقوش الأشرم ؛ ونائب حماة قراسنقر المنصوري بعد موت الملك المظفر

وكان التتار في أواخر القرن السابع الهجري قد أغاروا على الشام مرتين فردهم بيبرس على أعقابهم . وفي سنة ٧٠٠هـ أي في مستهل القرن الجديد أغاروا ثانية على الشام بقيادة قازان وأحلوا بها الحرمات وكثر عبثهم فيها وقتلوا وسبوا النساء واقتحموا على الناس المساجد ، يحطمون أبوابها ويحاربون الله فيها ...

وهنا يقف علماء الشام موقفاً رائعاً ، فيحرضون الناس على الدفاع ، وينظرون شزراً إلى ذهب التتار وفضتهم اللامعة ؛ ويقف رجل منهم جليل هو ابن تيمية معلناً ان أهل الشام لا يسلمونها إلى عدو الله ما دامت فيهم عين تطرف ؛ ويرسل إلى نائب قلعة دمشق يقول له : لا تسلمهم القلعة ولو لم يبق فيها إلا حجر واحد . ويستجيب المسلمون إلى صوت شيخ العلماء فيقفون صفاً واحداً ، حتى يكرهوا العدو على الرحيل ويطهروا البلاد من أرجاسه

وكان ابن تيمية هذا يقظاً متنبهاً لأحداث زمانه ، وليست فيه غفلة بعض الفقهاء ، ولكنه رجل صاحي العين والفؤاد . وكيف ينام والعدو على أبواب دمشق ؟ فهو يقضي الليل قائماً يحض الناس على الصبر ؛ ويدور كل ليلة على أسوار دمشق يحرض الناس على الثبات ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط

وليس يعنينا من القرن الثامن أحداثه السياسية ، فذلك ليس موضوع البحث ، ولكن يعنينا حالة العلماء والفقهاء فيه فقد ظهرت بين الفطرين الشقيقين في ذلك العهد مشاركة في مناصب العلم والوعظ والقضاء ، وكان كثير من علماء مصر يعيّنون في الديار الشامية ؛ كما أن كثيراً من علماء الشام

الرضى من الوصف ، ثم ينتقل بعدها إلى ما يريده من أغراض قومية ، فيسائل أين معالي الإيوان الجمة وأين حماه الأفيح وأين رجاله الذين غلبوا الناس :

أين لا أين المعالي جمة ... والحمى أفيح والرأي مغارا
ورجال شدخت أوضاحهم ... غلبوا الأعناق منّاً وإسارا

فيجيب عن ذلك بجواب تتجلى فيه نزعته القومية ، وروحه الإسلامية واضحة جلية :

عمروا لم يعلموا أن لنا ... جائز الأمر عليهم والإمارا

ثم هو يشير إلى ما كانت عليه الأمم المجاورة للعرب من النظر إليهم نظر الاستهانة وقلة الاكتراث غير عالمة بما وراء هذا الهمود من الاندفاع العجيب ، ولا حاسبة بأن تلك الأمة الممزقة الرأي المقطعة الأوصال ستهب هبة تدهش الدنيا :

قدروا جدّ نزار واقفاً ... ومشى الجد فما عزوا نزارا

ثم يصف الوثبة العربية العظيمة وما رافقها من بطولات وتضحيات وكيف أذهلت الناس فمنوا لها مستسلمين

لاوذوا لما رأوا من دونهم ... وادياً يلقى به السيل غمارا
عاينوا الضرب دراكاً في الطلى ... يعجل الفارس والطعن بدارا

ثم يشبه العرب بالأسد يهب مصحراً بعد طول الخور :

أصحر الليث المفوّق فانثنى ... يطلب اليربوع في الأرض وجارا

وبعد هذا الاعتزاز بقومه والتفاخر بأمته يتحدث عما أفضت إليه نهضة العرب وعن رسالتهم الإسلامية التي حملوها إلى الآفاق تجلو دياجير الشرك وتمحو معالم الوثنية وتنشر التوحيد حيث حلت :

قهروا الشرك على أعقابه ... بعد ما استخدم غياً وضرارا
وأثاروا الدين من مربضه ... وأطاروا عن مجاليه الخمارا
داينوا المجد بأطراف القنا ... فغدا عينا وقد كان ضمارا

* * *

وهكذا ترى أن موقف الرضى على الإيوان غير موقف البحتري ؛ فإن الإيوان أثار من البحتري شاعريته ، ولكنه في الرضى أثار قوميته .

محمد عبد الغني حسن

يعينون فى مصر . وكان أحرار العلماء — وأعنى بهم غير الموظفين — يجوبون بين البلاد العربية وينتقلون بين القطرين فيفد الطلاب للقائهم والانتفاع بعلمهم والاغتراف من مناهلهم . والأمثلة على هذا كثيرة وقد تكفلت بسردها كتب التاريخ وخاصة كتب السلوك للمقريزى والبداية والنهاية لابن كثير والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى

فنرى مثلاً أن أحمد بن سلامة الأسكندرى المصرى يعين قاضياً لدمشق ، ونور الدين السخاوى المصرى يعين مدرساً بالجامع الأموى بدمشق ، والشيخ ابن الوكيل يدرّس بمصر فى مشهد الحسين وبالشام فى دار الحديث الأشرفية وغيرها

وكان تبادل العلماء بين مصر والشام أمراً مألوفاً فى ذلك العصر ، لما كان تعيين المدرسين من حق سلطان مصر . فإنه لما مات قاضى قضاة مصر ابن دقيق العيد سنة ٧٢٢ هـ كتب السلطان الناصرى المصرى إلى ابن جماعة قاضى قضاة الشام يحييه ويعظمه ويحترمه ويدعوه إلى مباشرة وظيفة قاضى القضاة بمصر خلفاً لابن دقيق العيد . فيجيب الشيخ دعوة السلطان ويفد إلى مصر مكرماً فتخلع عليه الخلع ويجزل له العطاء

وكان السلطان يعين كبار العلماء فى المناصب الكبرى كمشيخة الشيوخ والفتى وقاضى القضاة وقاضى العسكر والمدرسين . وكانت وظيفة مدرس من أرقى المناصب العلمية فى ذلك العهد . ويكفى للدلالة على سمو قدرها أن التعيين فيها كان من اختصاص السلطان مباشرة ، كما يذكر المقريزى فى كتابه السلوك . وكانت وظيفة المعيد تلى وظيفة المدرس فى المنزلة . وعمل المعيد فى القرون الوسطى هو بعينه عمل المعيد فى الجامعات الحديثة . وقد عرفه القلقشندى صاحب صبح الأعشى تعريفا دقيقا فقال : « هو ثانى رتبة المدرس ، وأصل موضوعه أنه إذا أتى المدرس الدرس وانصرف أعاد المعيد للطلبة ما ألقاه ليفهموه ويحسنوه »

ولم يكتف علماء القطرين فى القرن الثامن بالجلوس للدرس فى المساجد والمدارس ، بل كان لهم نوع من النشاط العلمى الدينى فرضته عليهم بعض الظروف فى ذلك العصر . فقد ظهرت بعض المذاهب المبتدعة الحائدة عن سنن الرسول وهديه والمنحرفة عن إجماع المسلمين . وكان فى خلال بعض هذه المذاهب وميض نار يوشك أن يكون لها ضرام ... فكثر الروافض بين التتار واشتد أمر الأحمدية وهى طائفة كان لها أحوال شيطانية — كما يصفهم المؤرخ ابن كثير ؛ ولهم كثير من الحيل والبهتان . وهم فى نظر ابن تيمية من الدجاجلة المخالفين للشريعة ؛ فنصب هذا الإمام السافى لهم العداء ، وأخذ عليهم أقوالهم وأفعالهم ، وعقدت له بالشام ثلاثة مجالس للرد عليهم وبيان ما فى طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب والسنة .

ولم تكن تلك المجالس تعقد فى المساجد الجامعة كما يتبادر إلى الذهن ، ولا فى سرادقات خاصة تضرب لها ، ولكنها كانت تعقد فى قصر نائب السلطان بدمشق . وهى تعيد إلى الذهن تلك المناظرات الدينية التى دارت بين علماء الكلام فى العصر العباسى الأول .

وقد أثارت تلك المجالس الدينية خصومة شديدة بين العلماء ، ولعبت فيها أحقاد القلوب دوراً عظيما ، فخشى الشيخ الأكبر على نفسه فى الشام ، وقصد إلى مصر لعله يجد فيها متسعا لآرائه وجهاده ، فخرج لوداعه من أهل الشام خلق كثير . وكان الخارجون — كما يروى ابن كثير — بين باك عليه أو حزين لفراقه أو شامت فيه أو متفرج محايد . وفى طريقه إلى مصر يعرج على غزة فيعقد له فى جامعها مجلس دينى عظيم . وفى مصر يعقد له مجلس بالقلعة يحضره القضاة ورجال الدين وأكابر الدولة . فتلاحقه فى مصر الأحقاد ويُكثر الحاسدون فيه القول ، ويفترون عليه الكذب . ويدّعى عليه فى هذا المجلس ابن مخلوف المالكى المصرى أنه من المشبّهة الذين يقولون بأن الله فوق العرش حقيقة وأنه يتكلم بحرف وصوت . ويقف الشيخ ليدافع فيقاطعه ابن مخلوف قائلاً : ما جئنا بك لتخطب . فيسأل ابن تيمية : ومَن هو الحكم فىّ ؟ فيجاب بأنه ابن مخلوف نفسه . فيتجه ابن تيمية إلى ابن مخلوف قائلا : كيف تحكم فىّ وأنت خصمى ؟ وينتهى المجلس بحبس الشيخ الأكبر فى برج أولاً ، ثم ينقل إلى محبس يعرف بالجب

(البقية فى العدد القادم)

محمد قطب الفقى عفى عنه